المحاضرة الرابعة/ التلقي الفرنكفوني لكتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" لسوسير:

مقدمة:

يعود فضل نشر كتاب سوسير إلى كل من شارل بالي (Charles Bally) وألبير سيشهاي Albert Sechehaye) وإن كانا لم يحضرا دروسه\* لكنهما بذلا جهدا طيبا في إخراجها، لكن الكتاب لم ينتشر في البداية في العالم، ولم ينتبه إليه الناس بالشكل المطلوب إلّا بعد انعقاد مؤتمر علوم اللسان الأول في لاهاي بهولندا عام (1928)، والسؤال المطروح: لماذا تأخر انتشار هذا الكتاب على الرغم من أهمية الأفكار التي يحملها؟

أولا/ تأخر انتشار كتاب سوسير عند ظهوره 1916:

يعود السبب المباشر لتأخر انتشار كتاب سوسير – حسب ما ذكره مختلف العلماء-إلى النقد السلبي الذي وجهه إليه كثير من أنصار المنهج التاريخي، ومنهم:

أنطوان ميي (Antoine Meillet)، الذي يعدّ من أرباب هذا المنهج، والذي كان يرى أن " لا علم إلّا في المنهج التاريخي"، حيث إنّ معظم الذين كتبوا عن الكتاب في فترة ظهوره كانوا ضمن هذا التيار، ومن التعليقات النقدية التي ظهرت في هذه الفترة ما كتبه:

- ميي (Meillet) 1916-1917.

- غرامون(Gramont) 1917.

- جسبرسن(Jespersen) 1917.

- سيشهاي(Sechehaye).1917

- وماروزو(Marouzeau) 1923.

- و بلومفيلد(Bloomfield) 1924.

وكلّ هؤلاء – عدا بلومفيلد-هم من أنصار المنهج التاريخي، وقد أثر ذلك على رأيهم في الكتاب، حيث أدركوا أفكاره على حد قول (جورج مونان):" *لا في مجموعها وفي نظامها المفهومي، بل من حيث مخالفتها لنقطة من نقط العقائد الشائعة في زمانهم*." ذلك أنّ سوسير أسس لمنهج جديد في البحث اللساني هو المنهج الوصفي في زمن سيطرت فيه "نظرية التطور" على الفكر في أوروبا. وكان المتداول في العلوم: المنهج التاريخي.

إضافة إلى أنّ الكتاب لم يؤلفه سوسير، وإنما هو عبارة عما فهمه الطلبة من محاضراته، ما أدّى إلى نوع من الشك في محتوى الكتاب، كما لا يمكن إغفال الظروف التاريخية التي ظهر فيها الكتاب والمتمثلة في " الحرب العالمية الأولى 1914-1918 وما نتج عنها، وقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في تأخر انتشار الكتاب.

وظلت الأمور على حالها حتى كتب (ليونارد بلومفيلد) تعليقه على الكتاب سنة (1924) مشيرا إلى كثير من الجوانب الإيجابية فيه، وكان أول عالم ينبه إلى أهمية كتاب (سوسير).وسرعان ما ذاع صيته بعد العمل الجبّار للعلماء الروس (رومان ياكبسون)، و(نيكولاي تروبتسكوي)، و(كارسفسكي) تلميذ (سوسير)خلال مؤتمر لاهاي بهولندا عام(1928)، بعدما انتقلت إليهم أفكاره بواسطة هذا الأخير، فقدموها بشكل موضوعي بعيد عن أي تأثير، وترجم الكتاب في العام نفسه إلى اليابانية ثم بعدها إلى عديد اللغات فتعرّف عليه الناس، وأعادوا قراءته بنظرة جديدة جعلت من أفكار سوسير منطلقا لكثير من الدراسات اللسانية، و منبعا لعلوم جمة.

ثانيا/ ظهور مخطوطات سوسير الأصلية:

ما إن بدأ الكتاب في الانتشار وانكب العلماء على دراسة ما فيه، لجدة طريقة طرحه في ميدان اللسانيات، حتى ظهرت مخطوطات سوسير الأصلية التي نشرها روبير غوديل تحت عنوان" Les sources manuscrites du cours de linguistique générale de F. de Saussure (Genève) والتي أحدثت ضجة عام 1957، أكثر من تلك الذي أحدثها كتابه بعد مؤتمر لاهاي، و أدّت إلى انقسام العلماء قسمين:

قسم أول دعا الباحثين إلى مراجعة كتاب "المحاضرات" في طبعته الأصلية(1916) مقارنة بالمخطوطات الأصلية لسوسير ورد ما شذّ عن أفكار سوسير الأصل إليه.

وقسم ثانٍ دعا إلى التخلي عن كتاب "المحاضرات" الذي نشراه كل من: شارل بالي وألبير سيشهاي والالتفات إلى المخطوطات التي ظهرت في حقل مشتل البرتقال لآل سوسير عام 1996 بغية تقديم سوسير الأصل وابعاد النسخة التي غيبته لسنوات.

هذان التياران كلاهما يحمل دعوة للعودة إلى سوسير وقد " كان الظهور الأول لعبارة " العودة إلى سوسير" من خلال مقال لشيس L.Chiss يحمل عنوان" الآني والتعاقبي: المنهجية والنظرية في اللسانيات ويعود لسنة 1976." أي بعد ظهور تعليقات توليو دي مورو (Tullio de Mauro) على كتاب" محاضرات في اللسانيات العامة" بأربع سنوات " [فمنذ] عام 1972 ظهر النص في نشرة محققة أعدّها توليو دي ماورو (Tullio de Mauro) حافظت على الترقيم نفسه، لكنها مذيلة بحواشي نقدية وتعليقات للناشر." والقول لميشال أريفيه.

وهو يمثل الاتجاه الأول مع روبير غوديل الذي دعا إلى قراءة سوسير وترهينه ذلك أنه " *من الصعب بمكان فصل أية طبعة نقدية للمصادر الأساس عن نص دروس في اللسانيات العامة، فلن يجد قارئ الحواشي النقدية المتعلقة بملحوظات الطلبة سوى مقطوعات وأشتات معزولة عن سياقها الأصلي، ولن يكون لديه وسيلة للحكم في نطاق معين على التوزيع الجديد الذي يعكس فكرا تم في كل* *لحظة تصحيح مقاربته."* أما الاتجاه الثاني فيمثله لويك دوبيكير الذي يدعو إلى تقديم سوسير الحقيقي بعيدا عن نسخة شارل بالي وسيشهاي. وكذا توليو دي مورو الذي دعا إلى قراءة سوسير في نسخته الأصلية لكنه تحفظ على نسخة 1916.

وبعد ظهور " المخطوطات الأصلية لمحاضرات في اللسانيات العامة" التي أخرجها روبير غوديل عام 1957، تتالت أعمال تعود إليه في الظهور وأهمها:

-Saussure, F. (de).Cours de linguistique générale. Edition critique préparée par Tullio de Mauro.1995

وهي طبعة نقدية قدمها توليو دي مورو، إضافة إلى النسخة التي نشرها كل من كوماتسو(Komatsu)، وهاريس (Harris) بعنوان:

* Troisième cours de linguistique générale. (1993).

ومن أهم النسخ اليوم النسخة التي ظهرت للوجود عام (1996) في مشتل برتقال آل سوسير وهي: "كتابات في اللسانيات العامة" -Ecrits de linguistique générale (2002) التي نشرها كل من: إنغلر (Engler) وبوكيه (Bouquet).

لكن السؤال المطروح: ما الذي حملته هذه المخطوطات إلى الدرس اللساني؟

ثالثا/ مراجعات لبعض أفكار سوسير من خلال المخطوطات:

إن أهم ما جاء في كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" لسوسير عام 1916 تلك الجملة الشهيرة التي ختم بها الكتاب" إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو: اللغة منظورا إليها في ذاتها ومن أجل ذاتها."

« La linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle-même. »

ويبدو أن هذه الجملة كانت من نتاج الناشريْن وكانت موجودة قبلهما حيث " *يشير فرانسوا راستييه إلى أن هذه الجملة ليست من كلام سوسير بل هي صيغة تعود إلى* فرانز بوب (1816)"، وهذا يعني إعادة النظر في موقع سوسير كمؤسس للمنهج البنوي، ثم إعادة قراءته انطلاقا من تصريحاته التي تنتهي باستفهام في شكل سؤال فلسفي عكس اليقين الذي عرفناه به في كتاب(1916)، فهو لم يقدم موضوع اللسانيات وكأنه موضوع سابق عنها، وإنما تركها تكتشف مجالها، وتعرّف بنفسها يقول:" *هل تصادف اللسانيات أمامها، كموضوع أول ومباشر، موضوعا معطى، أي مجموعة أمور تضبطها الحواس، كما هو الحال في الفيزياء، والكيمياء، والنباتيات، والفلك...إلخ؟*

*لم يحدث هذا بأي حال من الأحوال ولا في أية لحظة من اللحظات، فاللسانيات مناقضة تماما للعلوم التي يمكنها الانطلاق من معطى الحواس.*" كتابات في اللسانيات العامة(2002)

كما أنه يشير إلى الجانب الاجتماعي للسان " *واقع اللسان اجتماعي قبل كل شيء*" وهذا ما أهملته نسخة (1916) وهذا يخرج سوسير من الصرامة البنوية التي وصف بها.

ومن الأفكار التي أثارت وأسالت كثيرا من الحبر موضوع الاعتباطية الذي انقسم فيه العلماء إلى قائل بأن سوسير تكلم عن اعتباطية مطلقة فقط وفيه من ذهب إلى وجود نوعين من الاعتباطية؛ مطلقة و/ نسبية لكنهم اختلفوا أيضا في شرحها على مستوى الدال وعلاقته بما يعود إليه أم على مستوى المدلول لكن ما تؤكده المخطوطات اليوم هو أن" *الإشارة[[1]](#footnote-1)\* اعتباطية على الأقل من منظورين: من ناحية خارجية: بالنسبة إلى الشيء الذي تدلّ عليه الإشارة؛ ومن ناحية داخلية: بين الدال و/المدلول. وهي، في كلتا الحالتين، "اعتباطية تماما"، لا بل "اعتباطية كليا"* المحاضرة الثانية. ملاحظات ردلينغر (1908).

كما تحدث العلماء عن ثنائية اللسان و/الكلام لكن لم تقدم مثل ما قدمها كتاب شارل بالي وسيشهاي (1916) حيث ورد في مقال" الحصيلة النظرية السوسيرية"(1984) لرومان ياكبسون قوله:" نصل بالضرورة إلى تعديل المذهب السوسيري، ويتعلق بثنائية اللسان والكلام. فبالإضافة إلى امتلاك اللسان لمظهر اجتماعي فهو يحمل مظهرا فرديا، وبالمثل بالإضافة إلى امتلاك الكلام لمظهر فردي فهو يحمل مظهرا اجتماعيا."

لكننا كثيرا ما كنا نقرأ في نسخة (1916) أن الكلام هو التأدية الفردية مهملين الناحية الاجتماعية له، ذلك أننا بالتجربة نخضع كلامنا لسلطة الجماعة إذ نختار كلماتنا المستعملة وفق قاعدة عرفية لسانية عامة.

خاتمة:

رغم ما قيل ويقال عن كتاب " محاضرات في اللسانيات العامة" (1916) وما فيه من عيوب كشفتها المقارنة مع مخطوطات سوسير الأصلية، لكنها نسخة ساهمت في تخليد عالم كان سينسى مع مر السنين، كذلك سمحت بظهور فكر زئبقي نتيجة غياب سوسير الحقيقي حتى في المخطوطات الأصلية وهذا ما أكدته المقارنات وعمليات البحث عن سوسير الذي يبقى سؤالا متجددا في الفكر اللساني لا يمكن تجوزه على الأقل حاليا، لذلك من الضروري قراءته عبر كل النسخ التي ظهرت والتي تعد مكملة ومنقحة للنسخة الأولى(1916) التي غابت فيها كثيرا من موضوعات البحث السوسيري مثل " الخرافة" و"الجناس التصحيفي".

1. \* - يفضل ترجمة المصطلح بالدليل لا الإشارة وقد كنت نقلتها كما هي في ترجمة كتاب لويك دوبيكير. [↑](#footnote-ref-1)